احمد تيمور باشا

بقلم السيد خير الدين الزركلي
مؤلف كتاب « الاعلام »

الاسرة التيمورية في مصر ، كردية الاصل ، قدم جدها الاول تيمور بن محمد بن اسماعيل بن علي كرد ، من الموصل ، في عهد محمد علي باشا الكبير ، واتصل بهِ اتصالاً وثيقاً ، فكان من قادة جنده ومن كبار ولاته . وفي عهد المغفور لهُ الخديوي اسماعيل باشا عُرف اسماعيل تيمور باشا بن محمد بن تيمور ، والد صاحب الترجمة ، بفضل ونُبل ، فولى رياسة الديوان الخديوي وكان من خاصة صاحب الامر بمصر

وقَبْلَ وفاة اسماعيل تيمور باشا ، بنحو مائة يوم ، ولد لهُ نابغة التيموريين « أحمد » المترجم لهُ . فهو إذن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن تيمور بن محمد بن اسماعيل بن علي كرد

نشأ احمد يتيماً ، ربَّتهُ اختهُ الشاعرة الاديبة عائشة عصمتْ وزوجها محمد بك توفيق. وأدخلاهُ مدرسة « مرسيل » الافرنسية ، فمكث فيها بضع سنين .وشُغف بآداب العربية فانقطع لها ، وشُغل بها عن مواصلة الدرس في المدارس العالية التي كان أترابه ينتقلون اليها بعد تجاوزهم صفوف مدرسة كمرسيل

فكانت مدرسته بعد ذلك داره ، تلقى فيها مبادىء النحو والصرف والفقه والمنطق وما كان يقرئهُ الشيوخ في ذلك العصر ، فدراسته اشبهُ بدراسة الازهريين اليوم ، وقبل اليوم. وانتهت بهِ هذه الطريق الى التعرف بشيوخ الادب العربي واكابر علمائه من معاصريه ، فبعد أن تأدب على يدي الشيخ رضوان بن محمد المخللاتي ، ناشئاً ، وبعد ان لازم الشيخ حسناً الطويل ، زمناً ، تعرف بامام اهل اللغة الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ، ومفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده ، والعلامة الشيخ طاهر الجزائري ، فاخذ عنهم واستفاد منهم ، واتسعت دائرة جُلاَّسهِ فكان بيته مجمعاً لاهل العلم والادب من المصريين ونزلاء مصر. وتعلم التركية وشيئاً من الفارسية فكان يستعين بهما على الرجوع الى بعض كتبها فيما يحتاج اليهِ من تحقيق كلمة لغوية أو واقعة تاريخية . ولم أره في اجتماعاتي بهِ رحمهُ الله يكثر من معاودة المصادر الافرنسية مع معرفته بهذه اللغة واقتنائهِ بعض القيِّم من كتبها

وانصرفت عزيمته في بدء شبابهِ الى جمع نفائس الكتب ، ثم كانت تحمل اليهِ مخطوطاتها من الاستانة والمغرب والحجاز واليمن والشام والعراق ، وازداد غرامه بها فلم يكن يتصل

بهِ نبأ كتاب غريب في الادب أو اللغة أو التاريخ الا اسرع لشرائهِ أو استنساخه أو نقله بالفوطوغراف . وقد استحضر بالطريقة الاخيرة مجموعة نادرة من محفوظات الخزائن الكبرى في باريس وروما وڤينَّة والاستانة وغيرها ، اطلعت على بعضها عنده ، فتألفت مكتبتهُ التي تُعدّ بقيمتها العلمية من نظائر دار الكتب المصرية في القاهرة والمكتبة الظاهرية في دمشق ، بل ربما كان في الخزانة التيمورية ما ليس في هاتين وامثالهما من خزائن الشرق العربية . وليس في القول انها احتوت على خمسة عشر الف كتاب أو أكثر كبيرُ فائدة في الدلالة على قيمتها لان الكتب تقوَّم بنفاستها لا بعددها

وما اقتصرت همته على اختيار الكتب وجمعها ، كما هو دأب الكثيرين ، بل أودعها من علمهِ وتحقيقهِ أثراً خالداً ، فأثبت في كل كتاب طالعه منها ، وما أكثر ماطالع منها ، تعليقات وتنبيهات لو جمعت — وهي حرية بالجمع — لكانت كتاباً جليلاً هو في حسباني من افضل ما يدل على مبلغ كاتبها من علم بأدب العربية وتاريخ الامم والحضارات الاسلامية

وكان على ما بين اسرته والبيت المالك ، من اتصال قديم ، بعيداً عن حب المنصب ، زاهداً في كراسي الدواوين ، وقد وجهت اليهِ رتبة « باشا » وعين عضواً في مجلس الشيوخ فقبل الرتبة ودخل المجلس ، ولكنهُ ما برح يتلمس الوسائل لخروجه من المجلس محتفظاً بعطف من عيَّنه الى ان استقال في هذا العام ، وحوّل الساعات التي كان يقضيها فيهِ الى جمعية الهداية الاسلامية ، وانتُخب عضواً في مجلس ادارة جمعية الشبان المسلمين ، وهو أحد مؤسسيها . اما الاعمال العلمية فكان يُقبل عليها مسروراً ، منشرح الصدر ، فاختير عضواً في مجلس ادارة دار الآثار العربية ، وعضواً في المجمع العلمي المصري وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، فأفاد دار الكتب بتوليه النظر في كثير مما طبعتهُ ولاسيما الاجزاء التي صدرت في السنين الاخيرة من كتاب « الاغاني » اذ كانت تعرض عليهِ صفحاتها قبل طبعها ، وأمدَّ المجمعين العلميين بكثير من ثمار تنقيبه في متون اللغة والادب . وفي مجلة المجمع العلمي العربي من رسائله ومقالاتهِ نموذج عالٍ من اتساع اطلاعه ودقة تحقيقهِ ، نَشَر مثله في كثير من المجلات والصحف كالزهراء والمقتبس وغيرها

فالمرحوم احمد تيمور باشا كان أديباً ، عالماً بمادة لغته ، قديراً على حل مشكلاتها ، محققاً لاصولها ، متبحراً في أدبها ، واسع الاطلاع على تاريخي العرب والاسلام ، كثير العناية بآثارها

وكان من أخص صفاته في البحث والتأليف أنهُ لا يصنّف الكتاب لشهوة التصنيف ولا يكتب ليقال كتب تيمور ، وانما يجمع الغريب مع أشباهه ، ويضم الشاردة الى نظيراتها ويصيد طرف الموضوع فيقيده في اوراقهِ ، ويترك ذلك كله للزمن ، ثم يعاوده كلما سنحت

له فيه فكرة أو اتفق له جديد يتعلق به ، لاتتعجله الرغبة في النشر ولا يرضيه إخراج الرأي قبل وثوقه بنضجه ، فقلّ لهذا عدد ما طبع من كتبه،وظلّ جُلّ ما صنّفه حبيس خزانته : هذا كتاب يَنتظر ان يقع له ما يضيفه اليه ، وتلك رسالة ينقصها جانب من جوانب البحث . وذلك مقال يترقب الظفر بما يحقق رأياً فيه . ولو تسنىّ لغير تيمور ما تسنىّ له من المراجع وسعة نطاق العلم في الشئون التي اختصّ بها ، لطلع على الناس كل يوم بجديد أو شبه جديد ، ولكن تيمور كان حريصاً على ان يكون أثره تامًّا وعمله كامل التحقيق مستوفى أطراف البحث . هذه حقيقة فيه ، من جهلها اتهمهُ بقلة الانتاج

وما كانت الرسائل الصغيرة المطبوعة كـ « قبر السيوطي » و « اليزيدية ومنشأ نحلتهم » و « العلم العثماني » و « الرتب والالقاب » و «المذاهب الاربعة» و «تصحيح القاموس» و « تصحيح لسان العرب» وأمثالها مما نشر لهُ ، بدالّة على ما وعاه صدره من علم جم، وما كتبها لتكون « رسائل » تعرض في صف المصنّفات ، وانما هي « مقالات » دعت اليها مناسبات ، أو « نبائش » من دفائن التاريخ ضنّ بها على الطيّ ولم يرها من الجلالة بحيث تدّخر ليوم الظفر بتتمات لها فتكون كتباً ، فنشرها في احدى المجلات — وأكثرها في الزهراء — واستُخرجتْ فطُبع كل منها على حدة ، فكانت « رسائل »

أما الكتاب الذي كان يُكثر من تعهُّده وتهذيبه فكتابه « معجم الالفاظ العامية المصرية » وما من شكّ في ان بحثاً كهذا يتعذر استقصاؤه ، اذ الزيادة فيه كل يوم ممكنة وما دام مؤلفهُ يستمع الى العامة جاؤوه في كل حديث بطريف حديث. ومن كان شأنه كشأن تيمور لايَعُدُّ الكتاب اهلاً للنشر حتى يعتقد أو يتغلب على ظنه انه استكمل مادته، لم يعجب منه اذا أنفد العُمرَ فيه مستزيداً كلمة حديثة يضمها اليه او تفسيراً للفظ يأتي عليه . وقد بقي «معجمه » هذا مخطوطاً لم ينشر منه غير امثلة بعث بها الى مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية

على ان جهوده لم تنحصر في معجمه هذا ، بل كان دأبه فيه كدأبه في كتب اخرى منها « اعيان القرن الثالث عشر والرابع عشر للهجرة » و « ذيل طبقات الاطباء » و « التصوير عند العرب » و « حياة المعرّي وعقيدته » و « الآثار النبوية » و « معجم الفوائد » وكلها ، كما تدل عليه اسماؤها ، يعوزها الصبر والبحث

وكان عليه الرحمة، وقوراً طويل الصمت، فيه تواضع ولين، متجافياً عن الناس، يَعرض البحث في مجلسه فان كان بعيداً عن مكتبته، والكلام في اللغة او التاريخ ، تريّثَ لا يقول كلمته الاّ معلقةً ، مخافةَ الزلة — ولعله به اعلم جلسائه — وان كانت مكتبته تحت متناوَل يده اسرع اليها ، فاجتذب كتاباً يحلّ به الغامض او يوضح الاشكال مماالقوم متناقشون فيه

لم اسمعه — وقد جالسته كثيراً — يشير الى بحث كتبه او رأي نشره او كتاب ألفه . وكنت احب منه الكرم بما يعلم ، جعلت لنفسي يوماً في الاسبوع ازوره فيه عند الاصيل ، فأمكث ساعتين او ثلاثاً ، أراجع كتباً او استوفى موضوعاً ، فما عرف قصدي حتى كان اسرع مني الى ما اريد ، يَهديني الى المرجِع ، واذا لم يكن الخادم جاءني هو بالكتاب ، وما أدعى اختصاصه اياي بهذا وانما هو في جوار مكتبته غيره في بعده عنها

وما زلت اذكر له إلقاءه بين يديَّ قمطراته ومذكراته يوم بدا له اني ابحث عن تراجم المتأخرين ، وقد عاصر بعضهم وبادلهم الترجمة على طريقة علماء السَّلَف ، فكانت لي منها فوائد كثيرة لو التمست لها وسيلة اخرى لأعياني تطلُّبها . وفي البُعَداء عن مصر من يعرف من فضل تيمور اكثر مما يعرف أهلها . يكتب اليه احدهم بمباشرته تأليف كتاب او تحقيق حادث ، فلا تصل اليه كلمته حتى ينهض فيختار له من مكتبته مراجع قد تكون معدومة النظير ويبعث بها اليه مبيناً له مواطن الفائدة فيها . وكثيرا ما رأيته ينقل بخطه صفحاتٍ من مذكراته او كتبه ويُرسلها الى مستعلم او سائل . فما عاش تيمور لنفسه ولا لبلده ، وانما عاش للعلم ولكل عالم ومتعلم يكاتبه او يستعين به

واتخذ من ثروته معواناً على الخير ، الاَّ انه كان يختص ببرّه طائفة ممن يعلم فيهم الفاقة او الحاجة من المستورين . وكان يتشدد في كتمان ما يلقيه في ايديهم او يدسُّه في جيوبهم ، لايرضيه ان يعلم به احد . رُويت لي عنه أخبار من هذا النوع ، منها وضعه ورقة بمئة جنيه في جيب رجل علم أنه في اضطرار اليها ، ولما افترقا ورأى الرجل ما أبقته يد تيمور أسرع اليه يريد اعادتها ، فأجابه بحزم انه لا يحب ان يسمع منه او عن لسانه كلمة بشأنها . وآخر ما نقل اليَّ انه في الليلة التي توفي بها كان يفكر في ان يضع عن مستأجري بعض اطيانه شيئاً مما عليهم له ، يخفف به ما مسهم من ازمة القطن

أما حياته في بيته فكان لبنيه الثلاثة (اسماعيل بك ومحمد بك ومحمود بك) اقصى ما يمنح أبٌ أبناءه من حرية ، وانما جعل لهم ذلك بعد أن استوثق من صحة تربيتهم وأخلاقهم . وتوفيت والدتهم سنة ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م) بعد عشر سنين من اقترانه بها ، فلم يشأ أن ينغّصَ عليهم عيشهم بغيرها ، فعاش بقية عمره منفرداً . وأراد المرحوم السلطان حسين أن يصاهره فيزوجه بابنة له ، فغلب حبُّه لاولاده على حبه لنفسه . وتوفيت اخته المربية له ووالدته ، في نصف شهر واحد من سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) فكان لفقدهما اثر كبير في نفسه اشتدَّ بفقده أحد أبنائه المرحوم محمد بك . وأصيب بمرض في القلب كانت تعاوده نوباته الى ان توفاه الله بهِ في جوار مكتبته بالقاهرة